التعريب قبل فوات الأوان

للاستاذ عبد العزيز الرفاعي

نحن العـــرب ، مـــاذا بقى لنا لكي تمـاسك ؟ ولكي لا نضمحل ونتلاشى ، نذهب خـبراً من الأخـبار؟ ونذوب كـمـا ابت من قـبلنا أمم فـقدت شـخصـيتـها سياسية .

لم يبق لنا إلا اللغة .. فقد تكالب علينا غـزو الثـقـافي من كل جـانب ، يعـمل ئبًا، ليل نـهار ، لكي يقـوّض ارتبـاطنا غتنا ، لغة القرآن ، ويحولنا إلى أمشاج سهل ابتلاعها وتكييفها على النحو الذي يد .. وهو يدرك تمامـا أنه إن قـوّض غـة ، قـوض الدعـامـة الأسـاسـيـة في يـاننا ، وسَهُل عليه بعد ذلك أن يقوّض ـدها كل الدعـامـات الأخـرى ؛ لتنـهار حـدة تلو الأخـرى ، وبذلك لن تقـوم لنا ئمة ، ولا تجمعنا رابطة !

من فـضـول القـول حقـا التـحـدث عن ،ه البدهية التي يدركها كل عاقل متأمل كر ، يهمه أمر أمته .. لذلك لن أتحدث عن التـعـريب ، وضـرورته القـصـوى ، وإدخاله إلى الكليات العلمية ، واستغلاله لصالح العلوم بصفة عامة .. فقد تحدث قبلي كثـير من المختـصين المخلصين ، وقدموا بين يدي بحوثهم براهين وشواهد قوية .. مستمدين أدلة العقل والنقل .. داحـضين الحـجج التي يسـتند إليـهـا المعـارضـون مـهـمـا كـانت نوازعـهم وأدلتهم.. ونواياهم .

ولست أريد أن أكـرر مـا قـالوا أو ألخصه ، فذلك ما تعلمونه جميعا بأفضل مما أعلمه بكثير .

ولكني أريد أن أقـول في الموضـوع كلمة مختصرة ، أعلم – علم اليقين – أن فكرتهـا لم تغب عن أفكاركم ، ولكن يهمني أن أذكّر بها ، وبخاصة أني أرى سخرية مُرّة تواجه دعوة تعريب العلوم في الكليات المتخصصة .. وكأنما الدعاة إليه قد جاؤوا بكبيرة من الكبائر .. بينما

ألقيت هذه الكلمة في الجلسة العاشرة المنعقدة صباح الأربعاء غرة شعبان سنة ١٤١٢هـ الموافق ٥ من ير (شباط) ١٩٩٢م .

الأمـــر لا ينبـــغي أن يخـــرج عن دائرة الحـــوار الجـــاد ، الذي يتـــوخى الحق والحقيقة .. وينظر إلى الأعماق والأغوار والنتائج .. ولابد للحق أن يرتفع صوته.. أما استغلال الإعلام الساخر – وهو ذو صوت جهور – ضد هذه الدعوة الخيّرة.. فأمر أقل ما يقال فيه : إنه يخرج عن دائرة الحوار العادل .

وكلمتي المختصرة هذه تتعلق بأهمية عامل الزمن في موضوع التعريب .. فإن أخشى ما أخشاه ، ويخشاه معي المخلصـــون لأمـــتـــهم ولغـــتـــهم ، أن يســـرقنا الزمن بســـيـــفـــه المرهف ، ويستغرقنا الحوار العقيم ، حتى نستيقظ على حقيقة مرة ، تقول لنا في أسى : لقد فات الأوان .. ولم تعودوا قادرين على تنفيذ خطط التعريب ، لأن الداء قد استـفـحل ، ولم يعد له من عـلاج إلا البتر.. ويعني البتر هنا ، بتر اللغة العربية من حقول التعليم العلمي ، ومعنى ذلك أننا نقع في عدة ارتباكات تفصل الأمة بعضها عن بعض ، وتفصل الشـــعب الواحـــد ، وطبـــقـــاته إلى زمر متغايرة .. وتفصلنا عن تاريخنا وتراثنا .

قد يقول قائل : إن ذلك هو الواقع فعلا .. في الجامعات التي تدرّس بالعربية في بعض كلياتها ، وبالإنجليزية أو الفرنسية في بعضها الآخر ، وإن الأمة العربية ، منها ما يطبق التعريب ، ومنها مالايطبقه .. هذا صحيح .. وانعكاساته ملموسة أيضا ، ولكننا لا نزال نملك القدرة على أن نبادر بالعلاج قبل أن نزداد انشطارا .. ومن هنا أقول إن الأمر خطير ، ولا بد فيه من البت الحاسم السريع لصالح التعريب .

لقد كان الطب – مثلا – عربي اللغة والمصطلحات حتى في أوروبا ، إلى قرون قريبة .. ولا تزال بعض مصطلحاتنا العربية مستعملة في الطب الحديث إلى يوم الناس هذا ، بعد استغرابها ، وقد عدنا نستعملها مستغربة ، كأننا لم نكن نحن أصحابها .

بل هنا كليات طبية ، في عالمنا العربي ، تطبق تدريس الطب باللغة العربية .. وهي ناجحة .. بدليل صمودها على مبدئها منذ عقود من الزمن .

وها نحن أولاء نرى في العالم أممًا ذات لغات صعبة لا تدرس الطب إلا

بلغاتها .. كما يفعل اليابانيون مثلا .. بل هناك أمم في العالم الثاني أو الثالث ، تصمد في وجه التغريب ، وتدرّس العلوم بلغاتها القومية ، محافظة على شخصيتها .

إن المشكلة الأساسية التي يعتمد عليها مقاومو التعريب ، هي المصطلحات ، التي تزداد غزارة وتكاثراً بمرور الزمن وتقدم العلم .. ومن خلال هذه المشكلة وحلها ، أصل إلى ما أريد قوله : وهو أننا كلما تريثنا في أمر التعريب استفحل أمر المصطلحات .. أما لو حسمنا الأمر في أقرب وقت ممكن ، لأعاننا ذلك على استدرار اللغة بالاشتقاق والنحت والتركيب والتركيز .. بحيث نملك القدرة على استيعاب ما يجدّ من مصطلحات .. ثم ما الذي يمنع من استعمال المصطلح العالمي المتفق عليه ، كما هو ، وهذا ما فعله أجدادنا في النقل من اللاتينية واليونانية ..

ومن المعروف أن هناك جهوداً كبيرة بذلها المعجميون الأولون والعلماء العرب، في سبيل التعريب ، لا ينبغي أن نغفل عنها.

وكنت وأنا أكتب هذه الكلمة ، أطالع في كتاب (التنوير في الاصطلاحات الطبية) لأبي منصور الحسن بن نوح القمري (من القرن الرابع الهجري) حيث قدم لنا طائفة من المصطلحات الطبية ما أحوجنا إليها وإلى أمثالها ، نستعين بها على مهمتنا التعريبية .

ولا يغيب عن الذهن تلك الجهود المخلصة التي قدمها رجال أوفياء لأمتهم ولغتهم في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وغيرها من المجامع ، في هذا الاتجاه، وكلها جهود تستحق مع الإشادة بأصحابها ، أن تبعث من مكامنها ، لتكون محلّ التنفيذ والتطبيق .

أقول في الختام ما قلته من قبل مكررا مؤكدا :

حذار من البطء .. فلن تعمل الأيام لصالحنا ، هذا إذا أردنا حقّا أن لا نذوب في غمار المحيطات العميقة التي يمتد إلينا مدها . وبالله التوفيق .

عبدالعزيز أحمد الرفاعي
عضو المجمع المراسل من السعودية